بصدد مفهوم الأمانة في الترجمة

حسن بحراوي

1- الجذور الدينية لمفهوم الأمانة:

يتفق كثير من الدارسين على القول بـــأن مفهوم الأمانة ذو أصول أسطورية ودينية قديمة تعود في منشئها إلى واقعة بلبلة الألسن التي أعقبت انتهاك بابل للتعاليم التوراتية وقرار الرب بأن تبلغ الرسالات باللغات المختلفة مهما كلف ذلك من ثمن.

وفي العهود اللاحقة سوف يستند مفهوم الأمانة دائما تقريبا إلى أمثلة من الكتاب المقدس بحيث صار من النافل الحديث عن الوفاء والتزام الحرفية عند مباشرة نقل هذا الكتاب إلى مختلف الألسن انطلاقا من العبرية أو اليونانية. وذلك خشية أن يتسرب التحريف وسوء التأويل للنصوص الدينية.

ومن هنا شاع نوع من التأويل النسبي لمفهوم الأمانة مفاده أنه طالما أن الإنسان قد ترجم النص الإلهي، أي نص الخالق، فلا يضيره أن يتصرف في صيغة النص الذي كتبه الإنسان، أي نص المخلوق..بل يمكنه أن يدعي خلق نص آخر.(Bensoussane :114)

وارتباطا بمبدأ الأمانة، بوصفه مطلبا لاهوتيا، سوف ينتقل سان جيروم كبير مترجمي الكنيسة للإقامة في بيت لحم لكي يكون قريبا من اللغة والثقافة العبريتين ويضمن بالتالي نجاح أول ترجمة في التاريخ للكتاب المقدس.

وعلى هذا النحو ارتبطت الأمانة تاريخيا بترجمة النصوص المقدسة وظلت عملة نافقة ومعيارا يستند إليه كذلك عند ترجمة الوثائق التاريخية ذات القيمة. ورغم محاولات الخروج عن هذه السنة من لدن بعض المترجمين مثل ترجمة الألماني لوثر الحرة للكتاب المقدس، واعتراض بعض المنظرين المحدثين من أمثال ميشونيك وبيرمان مثلا اللذين اعتبرا الأمانة مفهوما طفيليا. فإنها ظلت محافظة على وجودها وصائنة لكيانها على مدى العصور. وذلك على الأقل ما تدل عليه النقاشات المتواصلة بصدد مفهوم الأمانة، والتي تصب في معظمها في فكرة مركزية هي أن أساس هذا المفهوم مستجلب من حقل خارج الأدب والثقافة بالمعنى الحصري للكلمة، ويندرج على الأرجح في سجل الدين والأخلاق.

وكما وجدنا الأمانة تتحقق افتراضا لأسباب دينية كما في حالة ترجمات الكتاب المقدس الذي كان يقتضي من مترجميه تحري الدقة والصرامة في نقل محتوياته بلوغا على درجة الحرفية التي قد تقود

إلى الاستغلاق..فإنها أيضا قد تحول دون النقل الأمين للأصول لنفس الأسباب العقائدية. ومن ذلك تلك المآخذ الكثيرة التي وجهّت إلى المترجمين السريان وخاصة منها تلك المتصلة بمسألة التحريف الترجمي بسبب النزعة أو العقيدة. وفي هذا الأمر يقول أحمد أمين:"وكان هؤلاء السريان ينقلون العلوم اليونانية بدقة وأمانة فيما لم يمس الدين كالمنطق والطبيعة والطب والرياضة، أما الإلهيات ونحوها فكانت تعدل بما يتفق والمسيحية حتى لقد حوّلوا أفلاطون في كتاباتهم إلى راهب شرقي، فقالوا إنه بنى لنفسه معبدا في البرية بعيدا عن الناس، وظل يتعبد فيه سنين، وهذه هي الطريقة التي سلكها المسلمون بعد، فقد أغفلوا من الإلهيات كثيرا مما يخالف تعاليم الإسلام."(أمين: 131.1969)

ويذكر أحد الباحثين من جهته أن النساطرة واليعاقبة لم يكونوا أمناء فيما نقلوه عن اللغات الأجنبية، وأن كثيرا من أخطاء الباحثين القدامى يرجع سببها إلى عدم أمانة المعرب أو ضعفه..مضيفا بأنه لا يعتقد أن الأخطاء التي ينسبها البعض إلى عدم الأمانة وقعت جميعها عمدا لغرض ما، فقد يكون هناك خطأ في الترجمة من اليونانية إلى السريانية وفي النقل من السريانية إلى العربية.وقد يكون هناك اجتهاد في الفهم وفي التأويل وفي التفسير إلى غير ذلك مما لم تسلم منه أسفار بني إسرائيل في العهدين القديم والجديد التي جاءت ترجماتها طافحة بالأخطاء والانحرافات، وفي نفس الوقت فهو لا يبرئ هؤلاء المترجمين من تلك الأخطاء المتعمدة التي لابد دفعتهم إليها عقائدهم أو عنصريتهم، وفي أحسن الأحوال أسقطهم فيها إخفاقهم في التأويل والتفسير الصحيحين..(مدني:1971ْ.ج.333.2)

وبوجه عام، فقد عاشت الترجمة في علاقتها بالدين نوعا من المفارقة: فهي من جهة مطلوبة، بل وضرورية لتوسيع قاعدة المؤمنين المتحدثين بلغات أخرى، ومن جهة ثانية تظل محاطة بكثير من مظاهر التشدد والتضييق بدعوى المحافظة على الأصول الدينية من التحريف عند انتقالها إلى اللغات الأخرى، خاصة منها تلك المسماة شعبية أو عامية..أي تلك المفتقرة إلى الحد الأدنى من النبالة والشرف.

2- سؤال الأمانة عبر التاريخ:

بالرغم من كل التاريخ الذي سلخه مفهوم الأمانة والتحولات العديدة التي تعاقبت عليه، فإنه يظل شاغلا أساسيا ما يزال يثير أسئلة المترجمين ومنظري الترجمة، بل إنه يواصل حضوره بإلحاح في كل النقاشات المتصلة بالترجمة وتداعياتها.

ومن ذلك أن التنظيرات الأولى للترجمة، قبل ألفي سنة، قد اتخذت مبدأ الأمانة مفهوما محوريا في كل تأمل حول الموضوع: فمنذ أن حذر شيشرون من الترجمة الحرفية ونبه هوراس إلى نقائص

الالتصاق الشديد بالأصل، وصولا إلى المنظرين المعاصرين، ظل السؤال الدائم عندهم منصبا على كيفية تحديد العلاقة بين النص الأصلي والنص المترجم، أي ما نسميه في العادة: مفهوم الأمانة Fédilité.

على أن الجواب على هذا السؤال لم يكن دائما بديهيا ولا حاسما، فبين مَن يرى أن الأمانة هي عدم حصول الانزياح عن الأصل وتجنب السقوط في الخطأ أو سوء الفهم، أي احترام منطوقه ومضمراته ومعانيه، ومَن يعتقد بأن الترجمة الأمينة هي التي تتبع الأصل كلمة كلمة، وتتقيد بأشكاله اللغوية وصيغه التعبيرية. بين هذا وذاك مسافة منظورة لا تسهل تحديد المفهوم أو تدقيق دلالاته.

وقد كان طبيعيا أن يتقلب هذا المفهوم في العديد من الأوضاع بحسب المراحل التاريخية التي قطعها. فقد كان في العصر الروماني مع شيشرون يعني الوفاء للفكرة، ثم انتقل في العصور الوسطى ليدل على الاقتراب الحرفي من الأصل، خاصة في حالة ترجمة النصوص المقدسة، بينما تراجع خلال عصر النهضة ليفسح المجال لظاهرة "الجميلات الخائنات" التي اتخذت التكييف والتوطين سبيلا للتعامل مع النصوص الأجنبية، وجاء القرن التاسع عشر ليضع حدا لانتشار هذه الطريقة وفتح الطريق أمام النزعة الحرفية باعتبارها الضامنة المؤكدة للأمانة.

ومع حلول العصر الحديث اتخذ مفهوم الأمانة أبعادا جديدة اصطبغت بالتصورات الفلسفية والإيديولوجية المعاصرة، وابتعد تدريجيا عن الفهم الأدواتي الضيق. وإذا لم هذا المفهوم قد استقر على حال ثابت من حيث محتواه ومدلوله، ولا من جهة تطوره التاريخي والدياكروني..فإن ذلك لا يعد غمزا فيه أو انتقاصا من وجاهته، بل ربما كان عنوانا على ديناميته وقدرته على الحياة المتجددة، هذه الحياة التي ستحاول الصفحات التالية الإلمام ببعض جوانبها وإضاءة بعض خباياها.

كثيرا ما طرح السؤال التالي بصدد الأمانة في الترجمة إلى درجة أصبح معها كلاسيكيا بل ومكرورا: هل نكون أمناء لمضمون النص الأصلي أم لشكله؟ أوفياء للمعنى أم للفظ؟ وقد كان هذا التساؤل في الغالب يأتي مصحوبا بسوء تفاهم آخر سببه ذلك الخلط الرائج بين مفهوم الأمانة ومصطلح الحرفية. ومعلوم أن هذا الأخير يتحقق عبر الارتباط بحرفية النص الأصلي من حيث جمله وكلماته مما قد يقود إلى الالتباس وإلى ضياع المعنى، وبالتالي إلى خيانة الأصل بدل الوفاء له. بينما الأمانة يمكنها أن تتوخى، وهي تبتعد عن الحرفية، أن تقترب أكثر من روح وجوهر الأصل والعبارة عنه بأفضل مما لو ظلت ملتصقة بخطيته.

وبالنسبة لمنظر الترجمة أوطو كاد لا مبرر لهذه الحيرة إطلاقا، ذلك أنه لا حياة لمضمون دون شكل يستوعبه، وبالتالي لا وجود لمعنى بدون لفظ. وضمن هذه العلاقة الجدلية المتحكمة في ثنائية

الشكل والمضمون يقترح كاد فهم الأمانة بما هي نوع من إعادة إنتاج التطابق القائم أو المفترض بين قطبي الثنائية. وهو ما يعني عدم استساغته للتفريق المتعارف عليه حتى الآن بين الترجمة الحرفية التي تعطي الامتياز للشكل، والترجمة الحرة التي تراعي نقل المضمون في المقام الأول. (74: Laplace)

و لم يخف القدماء من منظري الترجمة اعتقادهم بأن تحقيق الأمانة في الترجمة تواجهه صعوبات كثيرة ليس أقلها أن التجربة الإنسانية وأشكال التعبير عنها هي أبعد ما تكون عن التشابه بله التطابق، ومن تم فانتقالها من لغة إلى لغة أخرى بكامل الأمانة أمر بالغ النسبية إذا لم يكن مستحيلا.

وقد أبرزت التحليلات المعاصرة هذه الاستحالة التي تعيق الترجمة عن إعادة إنتاج الكلمات والتصورات والأفكار المعبر عنها في لغة ما ضمن لغة أخرى، وذلك بالاستناد إلى الاختلافات والحواجز القائمة بين اللغات والثقافات والتي يصعب تجاوزها على المترجم مهما استنفر من جهود وطاقات.

وفي سبيل حل هذا الإشكال العويص وجدنا المترجمين يضطرون إلى اختيار أحد سبيلين: فإما الوفاء للأصل والتقيد بمظهره وتفاصيله بما في ذلك الإذعان لالتواءاته ومغرباته، ونقل كل ذلك كيفما اتفق إلى اللغة المستقبلة ولو أدى ذلك إلى إنتاج نص مستغلق يعسر فهمه على قارئ الترجمة.. وإما الانتصار للغة الهدف مع ما يعنيه ذلك من لجوء المترجمين إلى التصرف في الأصل بما يلائم فهم وذوق وتوقع المتلقي الجديد، والتخلي بالتالي عن مبدأ الوفاء التام لنص الانطلاق.

وكما نرى، ففي كلتا الحالتين يكون المترجم قد حقق نصف الأمانة وضاع منه نصفها الآخر بحسب الاختيار الذي يكون قد اتخذه. ومن هنا سمى لادميرال الأوفياء للأصل ب"المصدريين"، وسمى الأوفياء للنسخة ب"الهدفيين"، بينما أطلق نيدا على النوع الأول من الترجمة "المعادل الشكلي" وعلى النوع الثاني" المعادل الدينامي".

وكان أنطوان غودو، وهو أحد مؤسسي الأكاديمية الفرنسية (1638)، يجعل مقياس الأمانة في الترجمة هو الوفاء للمعنى ولأثر النص على أذواق القراء. ولم يكن من دعاة التلاعب بالعبارة بدعوى التشبه بالأسلوب الأجنبي لأنه كان يعتقد أن لكل أمة ذوقها وطريقتها المختلفة في أداء المعاني والصدع بالأفكار.

ومن جانبهم، وعى منظرو مدرسة بور رويال مأزق الدعوة الملحة إلى التزام الأمانة ومطابقتها بالنزعة الحرفية التي تفشت في عصرهم، ولذلك وجدناهم يسعون إلى التلطيف من هذه الدعوة وينسبون الأخذ بها مبينين لأتباعهم نقائص الإفراط في اقتفاء آثار المؤلفات الأجنبية خاصة من جهة شكلها وأسلوبها المختلف بداهة عن أساليب وقواعد اللغة الفرنسية.

وكان أنطوان لوميتر، وهو من أبرز رجال التربية في بور روايال، قد انتدبته المدرسة لتحرير رسالة في قواعد الترجمة ينقل لن إدمون كاري مضمنها (1963) الذي لا يخرج عن العادة الوقتية في التذكير بضرورة التزام المترجم جانب الأمانة، والإلحاح على مظهر الأناقة الذي يجب أن يطبع الترجمات بحيث تبدو في صياغتها كما لو أن المؤلفين الأجانب، خاصة اليونان واللاتين، قد قاموا بتحريرها هم أنفسهم باللغة الفرنسية.

وبعبارات حديثة و موجزة يمكن تلخيص القواعد العشر العائدة للوميتر على النحو التالي:

ـ الأداء الكامل والجيد لمضمون الأصل دون حذف أو إقحام غير مسوغ.

ـ الحفاظ على الهوية الأجناسية للنص المترجم، مثلا تجنب نثر الشعر أو تقفية النثر..إلخ

ـ الوعي باختلاف اللغات من حيث بنياتها وأساليبها، والدعوة إلى التوسط عند إعادة إنتاج خصائصها أثناء الانتقال إلى اللغة المستقبلة.

ـالحرص على تناغم الخطاب المترجم بإخضاعه لجماليات التعبير الأسلوبية والبلاغية إسوة بالنص المؤلف.(Depré : 33.34)

ونحن لا نملك سوى أن نبدي إعجابنا بدقة ونباهة هذه القواعد، مفصلة ومختصرة، كما يقترحها علينا أنطوان لوميتر. كما نسجل استجابتها المبكرة لمقتضيات العلاقة القائمة بين اللغات والثقافات، وإقرارها بأهمية التلاقح الذي قد يلبي أفق انتظار الإنسانية وتوقها إلى التكامل والانسجام.

وقد تابع بيير كوسيل مواطنه لوميتر في اعتبار الأمانة للمعاني والأفكار دون الكلمات هي الطريقة المثلى للترجمة، ونادى مثله بمبدأ عدم تقيد المترجم بنظام ترتيب الكلمات الواردة في الأصل ونبذ التلوينات الأسلوبية والزخارف البلاغية ذات المنشأ الأجنبي لأنها تميت النص ودعا إلى استبدالها بما يقابلها من بنيات وتعابير محلية تؤديها وتدل عليها.

وتبدو مدرسة بور روايال هنا وكأنها تعيد إحياء ذلك التقليد القديم الذي كان شيشرون قد سنه للمترجم وتبناه سان جيروم ومن بعده مترجمو العصور الوسطى. وهو التقليد الذي يقصر الأمانة على الوفاء للمعنى دون الشكل، أي ما كان يعبر عنه تقليديا ب"ترجمة الأفكار وليس الكلمات".

وفي إنجلترا، كان منظر الترجمة ألكسندر تيتلر قد عبر خلال هذا القرن عما اعتبره مبادئ ثلاثة لتحقيق الأمانة، وهي على التوالي: التعبير الكامل عن الفكرة الأصلية، والاقتراب قدر الإمكان من الأسلوب الذي صيغ به الأصل، ثم تمكين الترجمة من عفوية وتلقائية ذلك الأصل.

وقد كانت هذه الخطوات التي شهدها النصف الأول من القرن السابع عشر تمهيدا لطريقة سيكون لها حضور مدوي فيما سيأتي من الزمن. وهي طريقة "الجميلات الخائناتLes belles infidèles" التي تزعمها بيير دابلانكور عضو الأكاديمية الفرنسية وأحيى بها تعاليم إتيان دولي أحد الأقطاب التاريخيين للترجمة الحرة والرائد الأول للا أمانة إذا صح التعبير.

وسيأتي القرن الثامن عشر ليعصف بكل هذه التعاليم ويرمي بها أدراج الرياح، وذلك بفتح الباب واسعا أمام ظاهرة "الجميلات الخائنات" التي اتخذت في هذا العهد عدة مظاهر تشترك كلها في خيانة الأصل بادعاء تجميله وتكييفه مع أوفاق الثقافة المستقبلة وأذواق المتلقين المنتسبين إليها. وربما كان أهون هذه المظاهر جميعها ما اقترحه لوكونت دوليل في الصيغة التي أسماها "الترجمة كإعادة تشكيل تاريخي" وقصد بها الاكتفاء بمتابعة الأصل من حيث معطياته التاريخية والوجودية ومباشرة صياغته بعد ذلك بكامل الحرية في لغة الاستقبال.

أما ماعدا ذلك، فقد ملأت طريقة "الجميلات الخائنات" هذه الحقبة وشغلت الناس، في فرنسا خاصة، عن التفكير في الأمانة والوفاء للأصول إلى ذلك الحد الذي جعل مؤرخي الترجمة يعتبرونها لحظة فارقة بين عهدين، وتعبيرا عن إمكان تحكم الاعتبارات السياسية والإيديولوجية في ممارسة الترجمة..حتى قيل بأن الفرنسيين قد استعملوا "حق المنتصر" في التعامل مع بنات أفكار الأمم المغلوبة على أمرها عندما لجأوا إلى تملكها والاستحواذ عليها عن طريق ترجمة متحررة ومتساهلة يهمها في المقام الأول ما سيصير إليه النص في اللغة الهدف. وأما ما ترتب عن ذلك من ترك للأمانة وخيانة للأصل أو محو لخصوصيته فشأن لا يعنيهم ظالما جرى الاستيلاء على ميراث الآخرين غير العائد إليهم.

وبما أن لكل شيء نهاية، فإن القرن التاسع عشر قد جاء ليشهد إعادة الأمور إلى نصابها ويدفع بظاهرة "الجميلات الخائنات" إلى خلفية المشهد، ويشكل في نفس الوقت انبعاثا لمفهوم الأمانة جاعلا حدا لحقبة طويلة من تجميد العمل به تحت تأثير الانتشار الكاسح للطريقة المذكورة خلال القرنين السابقين.

ليس ذلك فحسب، بل ستتحول الأمانة إلى ما يشبه العقيدة الراسخة لدى المترجمين العاملين في هذا القرن مما سيقودهم إلى الالتصاق بالأصل وصولا إلى ممارسة نوع من الحرفية الفوتوغرافية التي ستجعل هاجسها هو التزام الدقة البالغة في التعامل مع المؤلفات الأجنبية. ولعل الأمثلة الأشهر في هذا السياق الذي يشخص العودة الظافرة لمفهوم الأمانة هي ترجمة الشاعر نيرفال لفاوست لغوته، وترجمة شاطوبريان للفردوس المفقود لملتون، وترجمة لوكونت دوليل للإلياذة.

وهكذا تزامنت نهاية هيمنة "الجميلات الخائنات" أواخر القرن التاسع عشر مع بروز مفهوم يطابق بين الأمانة والحرفية، بل وينتصر لهذه الأخيرة كنوع من رد الفعل على حقبة مديدة من ممارسة تتلاعب بالأصول وتجهز على خصوصيتها لصالح ترجمات يدعون بأنها تتناسب مع ذوق المرحلة وتكيف الأجنبي مع الوطني..وهي ليست قطعا كذلك.

لقد كان مناهضو الترجمة خلال القرن التاسع عشر يذهبون إلى أن تحقيق الأمانة بالمعنى الكامل أمر غير ممكن على وجه الإطلاق، هذا إذا لم يتحول السعي وراءه إلى وبال على الأصل والنسخة معا.

وعلى خلاف هؤلاء اشتهر الرومانتيكيون بتبني تصور عن الأمانة ومتعلقاتها يأخذ بمبدأ الاختلاف القائم بين اللغات والثقافات، وأهمية أن يجري الإبقاء على المظاهر الأجنبية في النصوص المترجمة ولو حملهم ذلك على الاستعانة بترسانة من الهوامش والشروح..وكل ذلك تلبية لهاجس الغرابة الذي كان قد انتعش في المرحلة الرومانتيكية التي حل بها محمولا على أكتاف نزعة الحنين إلى الغريب والاستثنائي والإحساس الطاغي بالوعي بالاختلاف.

لقد كان أدباء هذا القرن مبالغين دون شك عندما ظنوا ظنا فاسدا بأن الأمانة لا بد مؤديةٌ إلى أحد أمرين مشينين: الحذلقة أو الإغراب..وهو الأمر الذي جعلهم عاجزين عن الحكم على قيمة ترجمة ما، وأبعدهم بالتالي عن تقدير التأثير الحقيقي الذي يمكن أن تحدثه الترجمة في متلقيها.

والحال أن من شأن الإفراط في الأمانة أن يؤدي إلى نتيجة عكسية عندما سيقود الاحترام المبالغ فيه للأصل إلى بلبلة القارئ ووضعه أمام عبارات عويصة يتعذر عليه فهم مظنونها. وأما النتيجة الوخيمة التي يمكن أن نتوقعها لممارسة زائدة، أي غير محسوبة، للأمانة فهي انحدار الترجمة من مرتبة فن عريق يطاول الإبداع إلى مجرد فن ثانوي تتم الاستعانة به عند الحاجة إلى نقل ما لدى الآخرين ويفتقد إلى التميز والأصالة.

3- الأمانة وحجاب المعاصرة:

إن هذه البانوراما التاريخية السريعة تسمح لنا بالقول بأن مفهوم الأمانة يمثل انعكاسا لتصور محدد للأخلاق والإديولوجيا يجري إسقاطه على اللغة والثقافة ويفرز ممارسات ينخرط فيها المترجمون أحيانا دون وعي معلن منهم.

وقد لاحظنا أن التزام مبدأ الأمانة يؤدي، وقد أدى فعلا، إلى نتائج معكوسة. فبدل أن يكون تعبيرا عن الوفاء للأصل، فهو يجسد خيانة له وانزياحا عنه. وبذلك يفتقد إلى الثبات والمعيارية ويصبح مسؤولا عن كثير مما يتسلل إلى الترجمات من أنواع الضيم بالمفهوم الذي سبق وأن تحدث به الجاحظ.

وفي أقل الأحوال قد تصبح الأمانة، كما لدى بعض المعاصرين، مرادفا للاستعباد الذي يسجن المترجم في دور الناقل الذي يقتصر عمله على نسخ صورة عن الأصل تكون دقيقة وأمينة قدر الإمكان..وبالتالي تحرم عليه كل تدخل أو لمسة شخصية أثناء عملية الترجمة.

وإلى جانب شعور الاستعباد الذي يكون الآخذ بمبدأ الأمانة فريسة له، سوف يترعرع لديه شعور آثم بتدنيس الأصل عند كل محاولة للانزياح عنه بتجميله أو تقوية صياغته أو إخفاء بعض عيوبه.

لكن، وبعيدا عما ينجم عن تداعيات هذا المفهوم من أحاسيس مؤذية للمترجم ومفسدة لعمله، فإنه يبقى مفهوما مركزيا تتمحور حوله العديد من النقاشات وتُبنى على أساسه الكثير من النماذج والتصورات، منها ما هو بسيط ويدخل مدخل البديهي والطبيعي، ومن بينها كذلك ما يتضمن قدرا من التعقيد والالتواء بحيث يحتاج إلى مزيد من إمعان النظر وتقليب الوجوه.

ومن ذلك مثلا تلك الدقة والألمعية التي يصوغ بها والتر بنيامين فكرته عن الأمانة في الترجمة ضمن مقدمته لديوان بودلير "لوحات باريزية.1923"..فعنده أن الأمانة مفهوم تقليدي يظل بحاجة إلى المراجعة والتعديل ليتحقق على نحو خلاق. وهو يريد بالترجمة الأمينة تلك التي تذهب إلى أبعد من نقل المحتوى، لأن هذا الأخير لا يمكن تقدير قيمته على الوجه الصحيح طالما لم نتعرف على الشكل أو الإيهاب الذي يتخذه.

وهكذا، فإذا اقتصرت الترجمة على إعادة إنتاج المادة دون الصياغة أو اللغة والشعور، وهو أمر صعب التحقيق في حد ذاته، فإنها تبقى على مبعدة من أداء كامل المعنى الكامن في الأصل، وبالتالي ستظل عاجزة عن بلوغ مرادها الذي هو الإخبار عما قصد إليه المؤلف الأجنبي من خلال المضمون والشكل والعبارات المتضمنة في عمله.

وإذا ما نجح المترجم في إبراز هذا القصد، وليس إعادة إنتاجه، يكون قد حقق أعلى درجات الأمانة للأصل وأصبح بإمكاننا أن نقول بشأنه العبارة الشهيرة: "هذه الترجمة تبدو كما لو أنها كتبت أصلا بلغة الاستقبال".

ومن هنا يصل بنيامين، مستعينا برؤيته الثاقبة، إلى أنه لا قيمة للأمانة إذا لم تضئ الأصل وتجعله شفافا، كما يكشف من جهة أخرى عن نقائص الإفراط في التزام الأمانة للأصل والتي ليس أقلها أنه

يضعف لغة الاستقبال بإلحاحه على اقتفاء أثر لغة الأصل، والرغبة في إعادة إنتاجها، في حين أن التعامل ببعض الحرية مع الأصول يسمح بتوسيع وإغناء لغة الترجمة عن طريق تلقيحها بصياغات مولدة وتطعيمها بتعابير جديدة ولا عهد لها بها.

وهكذا سيصبح امتداح ترجمة ما عند وصفها بالأمانة الكاملة للأصل نوعا من القدح والغمز في جدواها بدلا من أن يكون، كما كان دائما، إطراء لها.

ومعلوم أن بنيامين يستمد فكرته عن الأمانة من منظري الترجمة الألمان للقرن التاسع عشر، مثل غوته وشليغل ممن كانوا يعتقدون أن الإلحاح على الوفاء للأصول الأجنبية كان ينجم عن تبجيل زائد، وربما عن تهيب لا محل له، أكثر مما كان صادرا عن موقف مبدئي تمليه الأخلاق واحترام الآخر. والحال أن الوفاء الذي يجب أن ينصرف إلى روح تلك الأعمال الأجنبية، لا ينبغي أن يحول بيننا وبين استخدامها لتخصيب لغتنا الخاصة وتفجير إمكانياتها وفتحها على أقصى قابلية للتوسع والتحول.

وهو يضيف إلى ذلك بأن الأمانة في نقل الكلمات، أي الترجمة الحرفية بمعنى ما، لا تكون قطعا هي السبيل إلى التعبير عن حقيقة مضمون النص الأصلي، بل ربما جنحت إلى الانحراف عنه وهي تسعى إلى استنساخه حرفيا..ومن هنا فالأمانة الحقيقية ليست هي الحرفية ولكن هي التمسك بحرية الاقتراب من الأصل مضمونا وشكلا بحيث تشف عنه دون أن تضاعفه أو تنسخه.

ويضع فاليري لاربو (1946)، من جانبه، مفهوم الأمانة في مقابل مفهوم الخيانة، ويجعل تجسيده في الترجمة من أثقل المسؤوليات الواقعة على كاهل المترجم، وفي نفس الوقت من أخطر المهام النبيلة المنوطة به. ولذلك يكون مأزق المترجم هو كيف يتجنب الخيانة ويضمن الأمانة، وفي أسوأ الحالات كيف يقلص من حصة الخيانة ويقوي من حظوظ الأمانة.

ولعل هذا ما جعله يصف المترجم بأنه "وازن كلمات" ويوكل إليه مهمة وضع الحد بين الحرية المفرطة التي تقود إلى خيانة الأصل، والتقيد المبالغ فيه الناجم عن التزام الوفاء لذلك الأصل نفسه. إنه، كما نرى، رهان المترجم وقد تحول إلى مأزق.

في سياق تناول منظر الترجمة الفيلسوف الإسباني أورتيغا إي غاسي (1976) لمسألة الأمانة يعرض لطبيعتها "الطوباوية" الناجمة عن الصعوبة الاستثنائية التي تكتنف تحقيقها، وتشخصها جملة أسئلة في مقدمتها: هل نكون أوفياء للغة الانطلاق أم للغة الوصول؟ هل نختار الاقتراب من المؤلف أم الدنو من القارئ؟ هل نلتصق بالمعنى الوارد في الأصل أم نرتبط بالشكل الذي يتخذه؟ هل نأخذ بمبدأ الحرية

والتسامح أم نلتزم الدقة والصرامة؟ وطالما أن الجواب على هذه الأسئلة ليس بالتمرين السهل، فإن المسافة بين الترجمة والأمانة ستظل متغيرة بل ومطاطية ولا حد لالتباسها.

وإلى ذلك، فإن إي غاسي ينتهي من تحليله إلى ما يشبه المعادلة الصعبة، تاركا الطريق سالكا نحو نوع من التسوية: فهو إذا كان يستثني إمكانية وجود مضاعف كامل للأصل، أي تكرارا له بجميع عناصره، فإنه لا يذهب إلى حد القول باستحالتها، وعنده أن مصاعب تحقيق الأمانة في الترجمة هو ما يؤكد عظمتها وليس قطعا علامة على بؤسها.

4-اشتراطات الأمانة:

وربما حان الوقت الآن، وقد قطعنا هذه الأشواط في تقليب المفهوم من وجوهه المختلفة، أن نتساءل بصدد الوسائل المفترضة لتحقيق مبدأ الأمانة وترتيب أولوياتها. وإذا ما تابعنا تصريحات المترجمة الفرنسية العريقة سيلين زنس أمكننا أن نقول بأننا إزاء هذه المسألة نكون مطالبين بالتوقف عند مظهرين اثنين لا غنى عنهما:(Zins :49.50)

1 ـ المظهر الأول مباشر وأدواتي صرف، ويقضي من جهة أولى بضرورة التمكن من اللغة المصدر، أي التوفر على معرفة كافية باللغة الأجنبية التي ننقل عنها، مما يعني ضمنيا تجنب الترجمة بواسطة لغة ثانية لأنها لاشك تضعف من درجة الأمانة المتوخاة للأصل أو تجعلها غير قريبة المنال..وذلك بالرغم من وفرة الأمثلة الناجحة لمترجمين توسطوا بلغات أخرى كفيتزجرالد الذي ترجم أشعار الخيام، وإزرا باوند الذي نقل الشعر الصيني القديم، وأندري جيد الذي ترجم روايات دوستويفسكي..وكلهم توسطوا باللغة الإنجليزية.

ومن جهة ثانية يقضي هذا المظهر بالإلمام الجيد باللغة الهدف، أي بجوامع اللغة التي ينقل إليها، بما فيها الجوانب المعيارية كالمعجم والتركيب والصرف..إلخ والتلوينات الأسلوبية والانزياحات البلاغية وكل ما يفيد في بلورة موقف الكاتب الأجنبي من لغته الخاصة والتعبير عنه في لغة الترجمة.

وسيكون هذا المسعى الأدواتي ذو التمفصل المزدوج هو وسيلة المترجم إلى تحقيق رهان الأمانة بما هي امتصاص وهضم وإعادة خلق للآخر الأجنبي، وذلك طبعا في الحدود التي تسمح بها العلاقة بين اللغات وتبيحها شروط التثاقف المنشود.

2 ـ وأما المظهر الثاني فهو غير مباشر أو مجازي إذا صح التعبير، ويتدخل فيه البعدان الأدبي والأخلاقي اللذان تقتضيهما الأمانة: وتبدأ ترجمة ذلك على أرض الواقع بالالتزام المبدئي بالبقاء ضمن

الدائرة التي يبدع المؤلف الأجنبي في نطاقها، وذلك من حيث موضوعه وأسلوبه ونوعية القارئ الذي يستهدفه، ثم ثانيا بالعمل على اتخاذ موقع قريب من الخطاب اللغوي والأدبي المراد ترجمته، أي الاندراج في السجل الأسلوبي والتعبيري الذي يجترحه المؤلف الأصلي، واستنفار كل الملكات الإبداعية التي تتوفر عليها لغتنا لإعادة إنتاجه، أو على الأقل الاقتراب من روحه والصدور عنها في عملية الترجمة.

وربما أمكننا كذلك أن نضيف، من باب تحقيق مزيد من الأمانة، واجب أن ينفذ المترجم إلى العالم الوجودي والسيكولوجي الذي ألهم المؤلف، ونستبطن التأثير الواعي أو غير الواعي الذي يكون قد مارسه تكوينه الشخصي وحساسيته الذاتية على كتابته وإبداعه..وكل ذلك في أفق بقاء المترجم وفيا لرهان المشابهة والاستعادة الأمينة.

والخلاصة من كل ذلك أن مفهوم الأمانة بالمعاني والتصورات التي راج بها حتى الآن يظل بحاجة إلى مزيد من التدقيق والمراجعة حتى يتخلص من الالتباس الذي يخيم عليه والاستعمالات المزدوجة التي يكون عرضة لها.

فما هي حقيقة الأمانة على وجه التحديد؟ ولمن تكون يا ترى؟ للمؤلف الأجنبي أم لأذواق وأمزجة المتلقين؟ وهل تنحاز للمضمون أم للشكل؟ هل تحافظ على المسافة مع الأصل أم تسعى إلى تحطيمها؟ هل تكون غايتها تأكيد الاختلاف أم البرهنة على المماثلة والمشابهة؟ وأخيرا وليس آخرا هل تمثل الأمانة إطراءً للترجمة أم غمزا فيها؟ إن هذه الأسئلة وغيرها تعطي لمفهوم الأمانة بعدا إشكاليا يستحق منا أكثر من استعمال النظرة البديهية التي لا تتطور على ضوء التجارب والخبرات المتجددة.

5- الأمانة والحرية:

ما المبرر للحديث عن الحرية ونحن بصدد الكلام عن الأمانة؟ أليست ممارسة الحرية في الترجمة هي النقيض المباشر للأمانة؟ ألا تشكل وجهها الآخر؟..أليست تعتبر مظهرها الانقلابي وغير محسوب النتائج؟

إنه ذلك الرأي الشائع الذي يُظهر أن الأمانة والحرية على طرفي نقيض حينما يقدمهما وكأنهما على خلاف دائم بحيث لا يوجد سبيل إلى حسمه إلا باتخاذ موقف مع هذا الجانب أو ذاك..والحال أن الصواب يدعونا إلى تنسيب نظرتنا إلى الأشياء، فالأمانة ليست كلها فضائل كما تصورنا على الدوام، بل يمكنها أن تصيح عائقا أمام صياغة المعنى الكامن في الأصل، وخاصة عندما يكون على الترجمة أن تُعنى بإعادة تشكيل الخلفيات الجمالية والشعورية المتضمنة في العمل الأصلي. كما أن الحرية ليست

كلها نقائص ونقاط ضعف تصيب الترجمة. فهناك عدد متزايد من المنظرين يعتقدون اليوم بأن حصة محدودة من الحرية ربما تكون ضرورية لتحقيق الأمانة لأنه يكون بوسعها أن تقدم خدمة للأصل نفسه حينما تجعل الترجمة لا تشبهه تماما، بل يرون بأن عليها أن تحجم عن الرغبة في مطابقته حرفيا لأن ذلك لن يكون في صالحه قطعا.

إن الأمر لا يتعلق بكل تأكيد بتلك الحرية الفضائحية التي لا تقف بصاحبها عند حد، وإنما بتلك "الحرية النبيلة" التي تبيح للمترجم عند استعمالها إمكان تطعيم الأصل بعناصر تزيده نصاعة وجمالا وإن تكن لا تنتسب إليه كل الانتساب، وهي التي تأخذ على عاتقها مزية إضاءة العمل المستغلق وتجميل العادي وإعطائه النكهة حتى تستقيم الترجمة في أبهى مظاهرها، بل ربما جاوزت في ذلك الأصل الذي تنطلق منه كما في أمثلة معروفة يعددها مؤرخو الترجمة ولا يملون تذكيرنا بإمكان تكرارها.

وإجمالا لا يمكن إنهاء هذه المقارنة بين الحرية والأمانة دون الإشارة إلى أن الإفراط في الأمانة يمكنه أن يضعف لغة الاستقبال ويقلص من طاقتها التعبيرية عندما يحصرها في مهمة النقل والمشابهة، بينما ممارسة حد معقول من الحرية يوسع استخداماتها ويغني مخزونها ويعينها على ارتياد آفاق جديدة لم تكن تحلم بها وهي قابعة في عزلة عن اللغات والثقافات الأخرى.

ومن هنا فلربما كان رهان الترجمة في هذا السياق بالذات هو أن تكون أمينة قدر الإمكان وحرة بقدر الضرورة.

وأخيرا، فإن الأمانة بالمعنى المثالي لا يمكن تحققها إلا على نحو بالغ النسبية، ذلك أن الترجمة الحرفية لا تكون أمينة إلا بمقدار ما تكون الترجمة الحرة أمينة كذلك، وفي الحالتين معا نكون إزاء مراد يتعذر بلوغه اللهم على المستوى الافتراضي الصرف. واستلهاما لعبارة "الجميلات الخائنات" العائدة لعالم النحو الفرنسي ميناج يقول جورج مونان: "لدينا نحن المترجمين، كما لدى النساء، لكي يحصل الكمال لا بد من تحقق الوفاء والجمال معا.."(1976: 145)

h .bahraoui@yahoo.fr

المراجع المعتمدة

أمين.أحمد: فجر الإسلام.دار الكتاب العربي.بيروت.ط10.1969

مدني.أمين: التاريخ العربي ومصادره.القاهرة.1971

Benjamin. Walter : Mythes et violence.traduit de l'allemand et préfacé par Maurice de Gandillac,Paris,Denoel,1971.

Bensoussane.Albert: Deuxième assise de la traduction littéraire.Arles.Acte Sud.1989.

Berman.Antoine: L'épreuve de l'étranger.Culture et traduction dans l'Allmagne romantique, Paris.Gallimard.1984.

Cary .Edmond : Les grands traducteurs français.George.Genève,1963.
Ciceron : Du meilleur genre d'orateurs, texte établi et traduit par Henri Bornecque, Paris,Les Belles-lettres,1921.
Depré.Ines.Oséki:Théories et pratiques de la traduction littéraire. Armand Colin.Paris 1999.
Ladmiral.Jean René : Théorèmes pour la traduction.Paris.Payot.1979.
Laplace .Colette :Théorie du langage et théorie de la traduction.Dedier éruduction.Paris.1994.
.Larbaud.Valéry: Sous l'invocation de saint gérome.Paris.Gallimard.1946
Meschonnic.Henri : Pour la Poétique II.Epistémologie de l'écriture.Poétique de la traduction. éd.Gallimard. Paris.1973.
Mounin.Georges : Linguistique et Traduction.Dessart et Mardaga éditeurs,Bruxelles,1972-1976.
Zins.Céline : Actes des deuxièmes assises de la traduction littéraire.Arles.Acte Sud.1989.
Miseria y esplendor de la traduccion.Barcelone.1976. Y.Gasset. J.Ortega :

_ _ _ _ _ _ _ _ _ _ _ _ _ _ _

صدر للأستاذ حسن لشكر